الفصل الأول

قيام الخلافة العباسية

طموح البيت العباسي- نجاح دعوة الرضا من آل البيت- إعلان خلافة عبد اللّه أبي العباس.

انتصر البيت العباسي على البيت الأموي، وقضى على خلافتهم؛ ليحل محلهم في منصب الخلافة، وأصبحت الخلافة العباسية هي الخلافة الشرعية للمسلمين؛ وأُعتبرت من كبريات الدول[1] إذ بقيت الخلافة في البيت العباسي في حدود أكثر من ثمانية قرون إلى أن تولاها الأتراك العثمانيون، فبدأت الخلافة العباسية صفحة جديدة في تاريخ الإسلام.

فقد كان في قريش فخذان لهما الرياسة، لا يناهضهما أحد، هما: بنو أمية وبنو هاشم؛ وإن كان بنو أمية في الجاهلية أكثر عدداً، والعزَّة وقتذاك للكاثر[2]؛ بحيث انتهت إليهم الرياسة[3]، وإن بقيت لبني هاشم بعض وظائف الكعبة القليلة[4]. فلما ظهر الإسلام في بني هاشم، افترق بنو أمية عنهم، وبدأ هذا الإفتراق بحصار بني هاشم في شُعب من جبال مكّة[5]؛ حتى إضطر النبي إلى الهجرة إلى يثرب؛ فاستعظمت رياسة بني أمية في قريش. ولما كان الفتح النبوي لمكّة؛ أراد النبي -وهو رأس بني هاشم- أن يكرّم بيت بني أمية، وبخاصة زعيمه أبي سفيان -وقد أسلم- وكان يحب الفخر، فأعلن النبي: من يدخل دار أبي سفيان فهو آمن[6]؛ بقصد أن ينتزع من نفوسهم الحقد نحو بني هاشم، ويتقي عصبيتهم. وقد سار أبو بكر على منوال النبي في التقرّب من الأمويين؛ حتى قال لهم: ادركوا إخوانكم بالجهاد[7]، أشرك بعضهم في قيادة[8] جيش الشام. كما أن عمر ولّى معاوية بن أبي سفيان إمارة الشام؛ أي جعله عامله عليها[9].

ويبدو أن نفوذ بني أمية قد رجع قوياً منذ إسلامهم، وساعد ذلك أن قريشاً كانت تأبى على بني هاشم، أن تكون فيهم النبوة والخلافة معاً[10]. فتمكن الأمويون من الحصول على منصب الخلافة لعثمان[11] -وهو أحد كبرائهم- خلفاً لعمر، واستبعاد عليّ بن أبي طالب من بني هاشم. ثم لما قُتل عليّ، آلت الخلافة لمعاوية أمير الشام، الذي حوّلها إلى مُلك وراثي في بيته؛ فتولاها منهم: بنو حرب، ثم بنو أبي العاص[12] (أو أبي العاصي)[13].

ولكن بني هاشم كانوا للأمويين بالمرصاد. وفي أول الأمر قام فرع بنو طالب بالسعي للخلافة؛ وذلك بالقيام بفتن متعددة؛ مما جعل الأمويين في أثناء خلافتهم يفتكون بهم فتكاً

ذريعاً، وهو ما اشتهر في كتب التاريخ باسم: مقاتل الطالبيين. فكان قتلهم للحسين بن عليّ في كربلاء، في يوم الإثنين 10من المحرم سنة 10/61 أكتوبر 680، وعدد كبير من آل أبي طالب معه، من أشهر فواجع التاريخ المعروفة، التي لا تزال آثارها باقية إلى وقتنا الحاضر. حينذاك هب فرع آخر من بني هاشم، هو فرع بني العباس، في محاولة أخرى للحصول على الخلافة لبني هاشم؛ مع أن الأمويين لم يكونوا قد عادوهم، مثلما فعلوا بالطالبيين.

وليس من السهل، معرفة الكثير عن طموح بني العباس قبل توليتهم الخلافة. فمن الصعب معرفة الحقيقة عن عباس[15] أو العباس بن عبد المطلب (ت653/32). عم النبي، الذي تأخذ الخلافة العباسية اسمها منه، وتسلسل منه الخلفاء العباسيون. فهو تاجر غني، حتى أنه سدد دين أخيه أبي طالب، كما أن بعض وظائف الكعبة[16]، كانت له دون إخوته من بني هاشم،ولا سيما سقاية الحجيج. وولاية زمزم. ويبدو أن النبي في أول دعوته لم يتصل بعمه هذا اتصالاً وثيقاً؛ إلا في حوالي 628/7، لما زوجّه ميمونة أخت زوجته، كما أن العباس نفسه لم يُسلِم[17] إلا لما سار النبي إلى مكّة في سنة 600/8؛ إذ ربما كان العباس يحرص على مركزه المرموق في مكّة، فكان يبتعد عن النبي، فإسلامه متقارب في الوقت مع إسلام أبي سفيان. بل إن النبي نفسه، لم يعط أهمية لإسلام العباس مثلما أعطى لإسلام أبي سفيان، وإن أبقى للعباس منصب السقاية، حفاظاً على منصبه السابق.

ويبدو أنه قد بولغ في الحديث عن العباس، لما قامت الخلافة العباسية، فحاول المؤرخون أن يُضفوا عليه من الإسلام والسيادة الشيء الكثير. فينسبون إليه أنه أجاب[18] الرسول إلى دعوته من بدايتها، لما نزلت الآية: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾(214:26)، وأنه لعب دوراً إيجابياً في إنجاح رسالة النبي. فخرج معه عند بيعة العقبة ليمهّد الأمر[19] له، وأنه لم يهاجر إلى المدينة ليكون عيناً له على قريش، وحتى أنه كان ممن حضر [20] موقعة بدر؛ حيث أن من حضروها يُعرفون كلهم بالإسم؛ وذلك لما ترتب عليها من تأكيد لدعوة الإسلام. كذلك وجدت أحاديث نبوية تقول بأن النبي كان يُجري على لسانه لفظة البشارة بدولة هاشمية[21]، تكون في ولد العباس؛ فلم يزل ولده يتوقعون ذلك وحتى الخليفة عمر بن الخطاب[22] لم يكن يغيب عنه مركز العباس في بني هاشم؛ فكان ينظر إليه على أنه رأس أسرة النبي، ففرض له في الديوان –أي في سجل الأرزاق والعطايا– وبدأ به.

ولكن الذي لا نشك فيه أن العباس كان حريصاً على أن تبقى الرئاسة في بني هاشم، دون أن يطمع في توليها؛ وذلك لوجود عليّ بن أبي طالب؛ إذ كان مثل بقية بني هاشم يؤمن بحق

عليّ المطلق في خلافة النبي. فقال لعليّ في وجع[23] الرسول الذي توفي به: "إذهب بنا إليه نسأله فيمن هذا الأمر؛ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه، فأوصى بنا"؛ ولكن عليّاً قال له: "إن منعناها لا تعطيناها الناس بعده". وبعد موت النبي، أقبل العباس على ابن أخيه عليّ، وقال له[24]: "يا ابن أخي هلم أبايعك، فلا يختلف عليك اثنان"؛ ولكن عليّاً؛ تباطل لانشغاله بدفن النبي.

كذلك ابنه عبد اللّه، المعروف بابن عباس أو العباس[25]، كان مثل أبيه يحرص على أن تبقى الرئاسة في بني هاشم، دون أن يطمع فيها، وأن تكون لعليّ أيضاً. وقد أُعتبر ابن عباس في أول الأمر يد عليّ وعقله، فحارب معه، وكان واليه على مدينة البصرة، ثم هو الذي نصحه بأن يستعمل معاوية ثم يعزله[26]، وكان يريد أن يوليه مكانه في الشام، ونصحه بأن يجعله حكماً[27] في دُوَمَة الجَدل، بدلاً من أبي موسى الأشعري؛ حتى لا تقوم أي خدعة، تَنحى بيت بني هاشم عن حقهم في الخلافة. ولكن حدثت بين ابن عباس وعليّ وحشة، اعتزله ابن عباس بعدها –لا نعرف سببها الحقيقي– ربما لأنه قدّر فشل سياسة عليّ في الحفاظ على الخلافة لبني هاشم؛ وإن قيل: إن علياً هو الذي أبعده لتصرفه بالأموال، أو لأن شيعة عليّ حرضته ضده، كما اعتزل ابن عباس الحسن ومن بعده الحسين. وعلى العكس، فإنه لما وجد بادرة أمل لبني هاشم في حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي[28]، الذي كان ينادي بالثأر لآل البيت، فإنه أيّد حركته، ولما تمكن المختار من قتل من قتلوا الحسين، قال عنه[29] ابن عباس: "إنه أصاب بثأرنا".

ولا مشاحة عندنا في أن ابن عباس قد أصبح له طموح لم يعلن عنه، بعد مقتل عليّ، وخصوصاً أن معاوية كان ينظر إليه بعد موت الحسن، على أنه سيد[30] بني هاشم. ويؤكد ذلك، أنه ناقش[31] ابن الزبير في حقه في الخلافة، وأن ابن عباس أحق بها منه، كما كان له موكب[32] في موسم الحج، مثل موكب الخلفاء. كذلك كان العباسيون يرون أنه هو الرجل الذي أخذ على عاتقه أن يبيّن أهمية الفرع العباسي، وذلك حينما روى كثيراً من الأحاديث النبوية، حتى أن معظمها يُنسب إليه، كما أُعتبر من أوائل علماء الفقه، وإمام التفسير، فقد جُمع فقهه في عشرين كتاباً، وبلغ حديثه نحو ذلك، بينما لا تبلغ فتيا الحسن والحسين ورقتين، وحديثهما ورقة أو ورقتين، وأنه كان يقرأ السور، فيفسرها آية آية. وبسبب ذلك أُعتبر ابن عباس: فتى الكهول، وعُرف ببحر الأمة (أو البحر) وحبرها أي أستاذها، وترجمان القرآن. بل نُقل عن النبي أنه سماه أبا الأملاك أو الملوك، لأن من عقبه جاء الخلفاء

العباسيون، من دون بقية أبناء العباس[33] لآخرين، مما يدل على أن النبي كان يرى أن لخلافة ستكون في عقبه، وأن الدولة العباسية هي الدولة المبشر بها. ولكن ربما لم يقم ابن عباس بشيء لذهاب[34] بصره، وقد توفي بالطائف عام 687/68[35]، عن إحدى وسبعين سنة.

ويبدو أن طموح الفرع العباسي، بدأ يظهر أكثر وضوحاً للأمويين، الذين تنبهوا لهم، وجمعوهم في الشام في عهد الوليد بن عبد الملك، ليكونوا قريبين منهم، ولمراقبتهم بدقة. ولعل عليّ[36] بن عبد اللّه بن عباس (ت735/117-736)، لم يكن له نشاط ظاهر، بسبب مراقبة بني أمية له، وهو الذي سُمي على اسم علي، لأنه ولد ليلة قبله في سنة 661/40، كما عُرف بالسجاد؛ لأنه كان متعبداً تقياً، ومحدثاً جليلاً، لم يظهر محدث مثله؛ فهو روى عن أبيه. ولكن خوفه من الأمويين جعله يخرج من العاصمة دمشق، فأقام في الشّرَاة[37] –وهو صقع بين دمشق والمدينة– في بعض نواحيه، في قرية الحُمَيْمَة[38]، وهي التي سكنها وولده من بعده وربما تكون الدعوة العباسية قد بدأت في عهده[39]، إذ ترى بعض المصادر ذلك؛ وإن كنا نشك في روايتها بسبب مراقبة الأمويين له؛ ولأن العباسيين إلى وقتئذ كانوا يدارون بني أمية.

ولكن محمد بن عليّ (ت741/124)[40]، هو أول عباسي، نزع إلى تأكيد استحقاق الفرع العباسي للرياسة، وتهوس للخلافة بقول المؤرخين؛ فزج بنفسه في غمار المخاطرة؛ بناء على وصية أتته من أبي هاشم عبد اللّه بن محمد بن عليّ بن أبي طالب، الذي كانت له شيعة أهل البيت، وله دعوة تُعرف: بالمختارية[41] أو الكيسانية[42]، نسبة إلى المختار الملقّب بكيسان، الذي كان يدعو لأبيه محمد بن عليّ بن أبي طالب، المعروف بابن الحنفية[43]، نسبة إلى قبيلة أمه "خولة" زوجة عليّ من قبيلة بني حنيفة، على أساس أنه الإبن الثالث لعليّ بعد الحسن والحسين، وأولى بها من أولادهما. ويبدو أن أبا هاشم، الذي ورث هذه الدعوة –فعرفت بالهاشمية[44] على اسمه– كان قصد دمشق وافداً على سليمان بن عبد الملك، الذي رأى من فصاحته وكياسته وعلمه، ما حسده عليه وخاف منه، فبعث إليه من سمه في لبن. فلماأحس أبو هاشم بأنه ميت (ت716/98)، عدل إلى محمد بن علي، وكان نازلاً الحميمة، فأوصى له في الدعوة، وأعلم شيعته بأن الأمر في ولد محمد[45] هذا، كما سلّمه خاتمه الذي كان يختم به الكتب إلى الدعاة.

ومهما اختلف في شأن هذه الوصية، التي تبدو شفهية، وأنها انتقلت بطريق الصدفة من العلويين إلى العباسيين، وما لازمها من الإختلاف بالنسبة إلى من دُفعت إليه: إلى محمد بن عليّ أو إلى أبيه[46]، إذ أن لدينا رواية تقول: إن محمداً كان صغيراً عند وفاة أبي هاشم،

الذي أمر علياً بأن يدفعها إليه إذا بلغ، فهو الإمام، والإختلاف أيضاً بوقوعها[47] في عهد الوليد أو سليمان أو حتى هشام، وأنها في حد ذاتها قد لا تعني[48] شيئاً بالنسبة لطموح العباسيين الموجود أصلاً؛ إلا أنها –مع ذلك– تبدو صحيحة للأسباب الآتية:

1- إن الدعوة العباسية خرجت إلى دائرة النور مباشرة بعد موت أبي هاشم.

2- الشيعة الكيسانية –وهي شيعة أبي هاشم– أطاعت للعباسيين بالفعل؛ مع أن دعوتها كانت سرية وباطنة منذ مقتل الحسين[49]، أو على الأقل منها خرجت فرقة العباسية[50]، التي تثبت الإمامة في ولد العباس.

3- إن صلة العباسيين بالكيسانية ليست جديدة؛ فقد كانت قائمة قبل وصية أبي هاشم؛ فإن عباساً –كما ذكرنا– كان مؤيداً لحركة المختار في الثأر لآل البيت[51].

4- إن حركة المختار اعتمدت على الموالي[52] –وهم من الشعوب المفتوحة الذين أسلموا من غير العرب– لأول مرة؛ ليقفوا أمام التيار الأموي العربي، وكان هدف العباسيين –كما سنرى– الدعوة للمساواة بين الموالي والعرب؛ للإستعانة بهم لقلب الحكم الأموي.

5- إن هذه الوصية، وحدت قوى آل البيت في المطالبة برئاسة المسلمين؛ لتقابل البيت الأموي، الذي أصبح منقسماً؛ وخصوصاً أن العلويين والعباسيين بنو عمومة.

6- إدراك آل البيت أن الفرع العباسي يجب أن يأخذ دوره في الكفاح بعد مقتل الطالبيين، أو على الأقل أن الناس كانت ترجو ذلك؛ فأبو هاشم لما أوصى لمحمد قال له[53]: إن هذا الأمر الذي ترتجيه الناس فيكم.

7- وأخيراً، فإنه بعد قيام الخلافة العباسية، أُعتبرت الهاشمية عند فرقة الإمامية –إحدى فرق الشيعة الكبرى– من الغلاة[54]، أي أنها لم تعد من الشيعة،؛ وذلك لأنها أجازت إنتقال الإمامة من ولد عليّ إلى ولد العباس.

والخلاصة أن طموح الفرع العباسي، تبلور على يد محمد بن عليّ؛ للمطالبة بمنصب الخلافة.

وبطبيعة الحال، تلتف أئمة العباسيين منذ محمد بن عليّ هذه الدعوة العلوية؛ التي انتقلت إليهم بالوصية، وحولوها إلى دعوة لهم؛ إذ لم نعد نسمع اسمها الأول: الكيسانية أو الهاشمية. ولكي لا يثيروا الشكوك حولهم، جعلوا شعاراً: الرضا من آل محمد، أو الإمام رضا من آل البيت النبوي، أي جعلوها لآل النبي أو آل البيت، وهم الذين كانوا يُعرفون أيضاً